مقاصد القرآن الكريم ومحاوره عند المتقدمين والمتأخرين

د/ عيسى بوعكاز

كلية العلوم الإسلامية – جامعة باتنة 1

الملخص:

تعد دراسة مقاصد القرآن الكريم ومحاوره من الأمور المهمة، للمتخصص بالدراسات الإسلامية عموما؛ وللمتخصص في التفسير والفقه على الخصوص؛ حيث إن علم المقاصد لا يقف عند الجزئيات، بل ينفذ منها إلى الكليات والأهداف، في كل جوانب الحياة، فهو يبرز الغاية بالمقاصد، والغاية التي خلق الله من أجلها الخلق ومدى تحقيقها. وبعض الدارسين من المتأخرين استخدم مصطلح المحاور بدل المقاصد في دراسته للموضوع.

وموضوع مقاصد القرآن الكريم ومحاوره طرقه الأوائل في مقدمات تفاسيرهم وفي مصنفات مفردة، كما تناوله المتأخرون في مقدمات تفاسيرهم وفي دراسات مستقلة.

ومعرفة مقاصد القرآن الكريم لها فوائد كثيرة؛ كفهم القرآن وتفسيره، فالعلم بالمقاصد ليس مقصودا لذاته، وإنما يراد به إعماله واستثماره في فهم النصوص الشرعية وتوجيهها، وهذا يكون على الخصوص في النصوص ظنية الدلالة.

وقد تناول المتقدمون علم مقاصد القرآن ومحاوره، وبينوا مسائل عديدة منه، بأسلوب التصريح أو التلميح ولكن دون تحديد للمصطلح باسم محدد. وواصل المتأخرون ما توصل إليه المتقدمون وفصلوا فيه، وأضافوا إليه وهذبوا فيه.

الكلمات المفتاحية: مقاصد، القرآن الكريم، محاور، المتقدمين، المتأخرين.

ABSTRACT:

The study of the purposes and topics of the Holy Quran is important for the specialist in Islamic studies in general، and for the specialist in interpretation and jurisprudence in particular. The science of Makassed is not confined to details and particles، but is applied to

total and global issues and objectives in all aspects of life. For which God created creation and the extent of its achievement. And some of the late scholars used the term axes instead of the purposes in his study of the subject.

The topic of the purposes of the Holy Quran and its axesis studied by the ancient scholars in the introduction of their interpretations and in independent works. The latter dealt with the precepts of their interpretations and in independent studies.

Knowing the purposes of the Holy Quran has many benefits، such as understanding the Qur'an and interpreting it. Knowledge of intentions is not intended for itself، but rather is intended to be realized and exploited in understanding and guiding the texts of the Shariah.

The scholars dealt with the purposes of the Qur'an and its topics، and pointed out many issues in it، in the manner of declaring or hinting، but without specifying the term in a specific name. The late ones continued what the applicants had reached and separated، and added to it and delved into it.

موضوع مقاصد القرآن الكريم ومحاوره طرقه الأوائل في مقدمات تفاسيرهم وفي مصنفات مستقلة، وتناوله المتأخرون في مقدمات تفاسيرهم وفي دراسات مستقلة. والبحث يحاول تجلية بعض ما توصلت إليه تلك الدراسات والأبحاث.

الفرع الأول- مفهوم المقاصد والمحاور

قبل عرض ودراسة عناصر الموضوع، لابد من بيان المفهوم اللغوي والاصطلاحي لكلمتي المقاصد والمحاور.

أولا- مفهوم المقاصد

1- مفهوم المقاصد لغة: تطلق كلمة "المقاصد" في اللغة على معاني متعدد ذكرها أصحاب المعاجم ومنها:

الاعتماد، والأَمّ، وإتيان الشيء، واستقامة الطريق، ومنه قوله تعالى: [**وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ**] [النحل:9]. والعدل ومنه قوله تعالى: [**وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ**] [فاطر:32].

والمقاصد جمع"مَقْصَد"والمقصد: مصدرٌ مِيمِي مُشْتَقٌّ من قَصَدَ.

وحدد ابن فارس دلالة الجذر "قَصَدَ" في ثلاثة أصول بقوله: "الْقَافُ وَالصَّادُ وَالدَّالُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ، يَدُلُّ أَحَدُهَا عَلَى إِتْيَانِ شَيْءٍ وَأَمِّهِ، وَالْآخَرُ عَلَى اكْتِنَازٍ فِي الشَّيْءِ.

فَالْأَصْلُ: قَصَدْتُهُ قَصْدًا وَمَقْصَدًا. وَمِنَ الْبَابِ: أَقْصَدَهُ السَّهْمُ، إِذَا أَصَابَهُ فَقُتِلَ مَكَانَهُ، وَكَأَنَّهُ قِيلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ عَنْهُ.

وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: قَصَدْتُ الشَّيْءَ كَسَرْتُهُ. وَالْقِصْدَةُ: الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ إِذَا تَكَسَّرَ..

وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ: النَّاقَةُ الْقَصِيدُ: الْمُكْتَنِزَةُ الْمُمْتَلِئَةُ لَحْمًا[1].

وأضاف الأزهري معنى آخر فقال: "الْقَصْد: اسْتقامة الطَّرِيقَة، قَصدَ يَقْصِد قصدا فَهُوَ قاصِدٌ، وَالْقَصْد فِي المعيشةِ ألاَّ يسرِفَ وَلَا يقتِّرَ"[2].

وملخص كلام اللغويين أن مادة (قصد) في الاستعمال العربي تدل على معان مشتركة ومتعددة، إلا أن الغالب عند إطلاقها انصرافها إلى العزم على الشيء والتوجه نحوه.

2- **مفهوم المقاصد اصطلاحا:** يمكن تعريف مصطلح المقاصد بما يضاف إليه. ففي الغالب يضاف إلى الشريعة وهو المشهور، كما يضاف إلى القرآن الكريم.

ورغم كون مقاصد القرآن أعم وأشمل من مقاصد الشريعة؛ فهي الأصل، ومقاصد الشريعة فرع، إلا أن مصطلح مقاصد الشريعة هو الأشهر والأكثر دراسة وبحثا وتصنيفا عند العلماء منذ القديم و إلى اليوم.

وسنقتصر على ذكر مفهوم المقاصد مضافة إلى القرآن الكريم، لأن مفهومها مضافة إلى الشريعة مشهور معروف، واجتهد فيه بعض المتقدمين وكثير من المتأخرين. ومن تلك التعريفات لمقاصد القرآن نذكر ما يأتي:

- **تعريف العز بن عبد السلام** حيث عرف مقاصد القرآن بقوله: "معظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها"[3]. والتعريف يلمح للمقصد العام للإسلام بأنه جلب للمصالح ودرء للمفاسد.

وهذا التعريف قريب من تعريفات كثير من علماء مقاصد الشريعة.[4]

ويمكن تعريف مقاصد القرآن بأنها: "المقاصد التي دارت عليها سور القرآن الكريم وآياته تعريفا برسالة الإسلام، وتحقيقا لمنهجه في هداية البشر".

ثانيا- مفهوم المحاور

1- المفهوم اللغوي للمحاور: المحاور مشتق من "حَورَ"، ويدور معناها اللغوي في المعاجم على معاني عدة منها:

جاء في معجم مقاييس اللغة: "(حور) الحاء والواو والراء ثلاثة أصول: أحدها لون، والآخَر الرُّجوع، والثالث أن يدور الشيء دَوْراً. فأما الأول فالحَوَر: شدّةُ بياض العينِ في شدّةِ سوادِها...

وأمّا الرجوع، فيقال حارَ، إذا رجَع. قال الله تعالى: [**إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ**] [الانشقاق: 14]. والعرب تقول: "الباطلُ في حُورٍ" أيْ رَجْعٍ ونَقْصٍ، وكلُّ نقص ورجوع حُورٌ...

والأصل الثالث المِحْور: الخشبةُ التي تدور فيها المَحَالة. ويقال حَوّرْتُ الخُبْزَةَ تحويراً، إذا هيّأتها وأدَرْتَها لتضعَها في المَلَّة"[5].

والأصل الثالث من معاني المحور هو المراد من البحث فالمحور والمحاور ما يكون مركز دوران الأمور والأشياء؛ كالموضوع الرئيس الذي يهيمن على بقية الموضوعات الفرعية في السورة القرآنية.

2 – مفهوم المحاور اصطلاحاً: لقد حاولت البحث للظفر بتعريف للمحاور أو حتى مفهوم يحدد المعنى العام له عموما، أو تعريف لمفهوم محاور القرآن خصوصا، ولكن المصطلح حديث وقليل الاستخدام، ولذلك كان كلام العلماء في بيان

مفهومه نادرا. ويمكن القول: إن مفهوم المحور في القرآن الكريم: "هو الأمر الجامع الذي يجمع موضوعات السورة وجزئياتها في نسق واحد". فالمحور هو الموضوع العام الشامل لموضوعات السورة القرآنية الجزئية.

فمحاور القرآن هي الموضوعات التي تدور عليها السورة والتي يتم من خلالها التوصل للمقصد الأصلي من السورة.

ثالثا- الفرق بين المقاصد والمحاور:

يمكن أن نلخص الفروق في العناصر التالية:

المقاصد هي الأهداف الكبرى للسورة أو للقرآن وهي مثل مقاصد الشريعة الكبرى المحصورة في خمسة مقاصد.

أما الموضوعات فهي المحاور التي تدور عليها السورة والتي يتم من خلالها التوصل للمقصد الأصلي من السورة.

وأما الأغراض فيظهر أنه يمكن التعبير بها عن المقاصد، كما يمكن أن نقول أن لكل موضوع غرضاً وبمجموع تلك الأغراض يتم التوصل للمقصد الأصلي.

فالسورة لها مقصد كبير رئيس، ثم يتم الوصول لهذا المقصد عن طريق محاور - موضوعات - السورة.

فهناك تقارب شديد بين هذه العبارات؛ إذ المقاصد مبنية على محاور والعكس، والمحاور تحمل أغراضا والعكس.

إن المحاور لها أغراض والأغراض تصب في مقاصد، وهذا كلام عام وتفصيله العملي أن تأخذ سورة من القرآن وتسبر محاورها وغرض كل محور وتتعرف على مقصد السورة ثم تربط الأغراض بالمقصد بعد ربط المحاور بالأغراض.

وعلى كلٍ فالمحور يتبع لضبط مفهوم الغرض والمقصد، حيث نجد مثلاً ابن عاشور يستخدم الغرض بمعنى المقصد فيذكر غالباً في بداية تفسير كل سورة أغراض السورة، ولكن نجد بعض هذه الأغراض تستخدم على أنها مقاصد عند الفيروز آبادي في بصائر ذوي التمييز، وعند البقاعي في نظم الدرر.

مقصد السورة عمود السورة؛ وهو الهدف العام من السورة وغالباً يكون مقصداً واحداً.

أما محاور السورة، فهي الموضوعات التي تعرضت لها السورة وهي تظهر بسهولة من خلال استعراض السورة.

وأما الأغراض فهي مرادفة للمقصد ولكن المقصد الأصلي للسورة يكون غرضاً واحداً لا أغراضاً، إلا إن شققت المقصد الأساس وهو الغرض الأساس إلى مقاصد جزئية تشكل بمجموعها المقصد الأصلي.

الفرع الثالث- مقاصدية القرآن الكريم وأهميتها:

إن القرآن الكريم مصدر الإسلام الأول، وحجية أي مسألة ترجع إليه تصريحا أو تضمينا، وكون المقاصد لها أهمية في تعليل الأحكام و بيان الحِكم؛ فالقرآن الكريم احتوى على أعلى المقاصد وأكبرها، فهو أصل الأصول ومصدر المصادر.

إن جميع المقاصد القرآنية المعتبرة، إنما هي راجعة في جملتها أو تفصيلها، تصريحا أو تضمينا إلى هدي القرآن وتعاليمه وأسراره وتوجيهاته.

ويمكن التدليل على مقاصدية القرآن الكريم على جهة الإجمال من خلال الأدلة التالية:

1- النصوص القرآنية الدالة على تعليل أفعاله تعالى وأحكامه كثيرة، ولو كانت الأحكام غير معللة لكانت لهواً وعبثاً، وهو تعالى منزه عن ذلك كما جاء في قوله تعالى: [**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ**] [سورة الأنبياء: 16].

والقرآن يشير إلى المقاصد بصيغ متعددة ومنها:

أ- النص على أن من مقاصد القرآن كذا... بلفظ الإرادة، كما في قول الله عزوجل: [**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**] [البقرة: 185]. قال الإمام الطبري: "يريد الله بكم، أيها المؤمنون التخفيفَ عليكم، والتسهيل عليكم، لعلمه بمشقة ذلك عليكم في هذه الأحوال"[(6)].

ب- صيغة من صيغ التعليل، وهي كثيرة منها: كي، لام التعليل، باء السببية فمثال "كي" قوله تعالى:[**لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**] [الحديد: 23].

ومثال "باء" السببية قوله تعالى: [**فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا**] [النساء: 160]. قال القرطبي عن هذه الآية: "وَقَدَّمَ الظُّلْمَ عَلَى التَّحْرِيمِ إِذْ هُوَ الْغَرَضُ الَّذِي قَصَدَ إِلَى الْإِخْبَارِ عَنْهُ بِأَنَّهُ سَبَبُ التَّحْرِيم "[7].

ومثال "لام" التعليل قول الله: [**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا**][النساء: 105]. فعلة إنزال الكتاب هو الحكم بين الناس بشرع الله.

وهناك صيغ أخرى كأن يصف الله نفسه بالحكمة والرحمة، أو حين يبين تعالى فوائد المأمورات وعواقب المنهيات.

2- القرآن الكريم منه تستفاد مقاصد الشارع الحكيم من إرسال الرسل وتنزيل الكتب وبيان العقيدة والأحكام وتكليف المكلفين ومجازاتهم، وبعث الخلائق والحياة والكون والوجود.فقد جاء أن المقصد من الخلق هو عبادة الخالق سبحانه والامتثال له، وقد دلت على هذا آيات كثيرة منها قوله تعالى: [**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**] [الذاريات:56]، وقوله سبحانه: [**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**] [المؤمنون:115].

3- من خلال القرآن الكريم ثبتت مقاصد الشريعة عموما والكليات الشرعية الخمس خصوصا: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، فقد وردت جملة من نصوصه وأحكامه لتثبيت تلك الكليات وتدعيمها، واعتبارها أصولا قطعية معتبرة في كل الملل والأمم.

4- من القرآن الكريم تحددت الكثير من الحكم والعلل والأسرار الجزئية، التي تعلقت بأحكامها الفرعية، والتي شكلت محتوى مهما أسهم في إبراز المقاصد وتكوينها.

5- من القرآن الكريم استخلصت بعض القواعد الفقهية ذات الصلة بالمقاصد الشرعية، فقد كان المنشغلون بفن القواعد يرجعون كل قاعدة إلى أصلها من القرآن والسنة أو منهما معا، ومن القواعد المبنية على نصوص من القرآن قاعدة: "المشقة تجلب التيسير"، وقاعدة:"الضرورات تبيح المحظورات"، وقاعدة: "الضرورة تقدر بقدرها"، وقاعدة: "العادة محكمة".

6- من القرآن الكريم استنبطت العديد من الخصائص العامة للشريعة الإسلامية المتصلة بالمقاصد الشرعية مثل خاصية التيسير والتخفيف ورفع الحرج والوسطية والاتزان والسماحة والرفق واللين والواقعية، وغير ذلك من الخصائص الكلية والسمات العامة التي تعاقب الباحثون والدارسون على طرقها وبيانها.

وأما أهمية معرفة مقاصد القرآن الكريم عامة - أي بما فيها مقاصد الشريعة- ففوائدها كثيرة نذكر منها:

1 - فهم القرآن الكريم وتفسيره؛ فالعلم بالمقاصد ليس مقصودا لذاته، وإنما يراد به إعماله واستثماره في فهم النصوص الشرعية وتوجيهها، وهذا يكون على الخصوص في النصوص ظنية الدلالة إذ يستعين المجتهد بالمقاصد في فهم النصوص واختيار المعنى المناسب لتلك المقاصد وتوجيه معنى النص بما يخدمها، وقد يصل الأمر بالمجتهد إلى تأويل النص وصرفه عن ظاهره في حال مخالفة ذلك المعنى الظاهر لمقاصد الشريعة وكلياتها"[8].

وبذلك تكون النصوص الشرعية قرآنا وسنة مجالا من مجالات إعمال المقاصد، بل عدها بعض الباحثين في علم المقاصد أول مجال اجتهادي يحتاج إلى النظر المقاصدي، قال أحمد الريسوني: "ولعل أول مجال اجتهادي يتوقف على النظر المقاصدي ويستفيد منه هو مجال فهم النصوص وتفسيرها سواء كانت قرآنا أو سنة"[9]. ولئن كانت عبارة الريسوني تفيد شيئا من التردد، فإن يوسف أحمد محمد البدوي قد جزم بكون النصوص الشرعية أول مجال لإعمال المقاصد، ونص على ذلك صراحة بقوله: "المجال الأول: فهم النصوص وتفسيرها ومعرفة دلالتها"[10]، وشرح ذلك بقوله: "ومن المسلم به أن الشارع قصد من أحكامه تحقيق عبوديته وتحقيق مصالح عباده ودفع الفساد عنهم، فإذا وردت نصوص شرعية تحتاج إلى التفسير والبيان، فإن هذه النصوص تفسر ويحدد نطاق تطبيقها ومجال إعمالها في

ضوء المصالح والمقاصد التي وردت هذه النصوص لتحقيقها والحِكم التي جاءت من أجلها"[11]. ففهم النص متوقف على إدراك المقصد.

2- تعميق فهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

3- الوصول إلى الحكم الشرعي في النوازل التي لم يُنصَّ عليها في الشرع.

4- التيسير على الناس في دينهم ودنياهم؛ قال الله تعالى: **[يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ]** [البقرة: 185].

5- أنها دلالةٌ على الكمال في أحكام الدين عقيدة وشريعة وأخلاقا؛ إذ إن أحكام الدين بُنيت على مقاصد رفيعة في كلياته وجزئياته، ولا ريب أن الحكم إذا كان عن مقصد وعلة وفائدة؛ فإنه كمال، خلافاً لما كان عارياً من ذلك.

وقد فصل عماد الدين عشماوي في بيان أهمية معرفة مقاصد القرآن الكريم فعددها في عناصر ومنها:

أ- مقاصد القرآن الكريم هي المدخل السليم إلى فهم الرسالة القرآنية الإسلامية على وجهها الصحيح.

ب- تمكن قارئ القرآن من الفهم السليم للمعاني التفصيلية والمقاصد الخاصة لأمثاله وقصصه ووعده ووعيده.

ج- هي الميزان والمعيار الذي يجب أن نزن به أعمالنا الفردية والجماعية.

د - تسديد فهمنا لمقاصد السنة النبوية جملة وتفصيلاً.

هـ- هي المعيار والميزان الذي لا بد منه للمفسرين في مناهجهم وتفسيراتهم، فتكون في نطاق مقاصد القرآن[12].

الفرع الثاني - مقاصد القرآن ومحاوره عند المتقدمين:

أولا: مقاصد القرآن عند أبي حامد الغزالي (505هـ) من خلال كتابه "جواهر القرآن"

حدد أبو حامد الغزالي المقصد العام من القرآن بالدعوة إلى الله، ثم بين أن المقاصد القرآنية تنقسم إلى ثلاثة أصول وثلاث توابع فقال:

أ - **في حصر مقاصد القرآن ونفائسه:** سر القرآن ولبابه الأصفى ومقصده الأقصى دعوة العباد إلى الجبار الأعلى رب الآخرة والأولى خالق السماوات العلى والأرضين السفلى وما بينهما وما تحت الثرى، فلذلك انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع.

ثلاثة منها: هي السوابق والأصول المُهِمّة. وثلاثة: هي الرَّوادف والتوابع المغنِيَة المُتِمَّة.

أما الثلاثة المُهِمَّة فهي: تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه، وتعريف الحال عند الوصول إليه.

وأما الثلاثة المُغْنِيَة المُتِمَّة:

فأحدها: تعريف أحوال المُجيبين للدعوة ولطائف صُنع الله فيهم؛ وسِرُّهُ ومقصودُه التشويقُ والترغيبُ، وتعريفُ أحوال النَّاكبين والنَّاكلين عن الإجابة وكيفيةُ قمعِ الله لهم وتنكيلِهِ بهم؛ وسِرُّهُ ومقصوده الاعتبار والترهيب.

وثانيها: حكاية أحوال الجاحدين، وكَشْفُ فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمُحاجَّة على الحق، وسِرُّه ومقصوده في جنب الباطل الإفضاحُ والتَّنْفير، وفي جَنب الحق الإيضاحُ والتَّثْبيتُ والتَّقهير.

وثالثها: تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأُهبة والاستعداد. فهذه ستة أقسام.

ب- في شرح مقاصد القرآن:

القسم الأول: في تعريف المدعو إليه

وهو شرح معرفة الله تعالى... وتشتمل هذه المعرفة على: معرفة ذات الحق تبارك وتعالى، ومعرفة الصفات، ومعرفة الأفعال. هذه المعارف الثلاثة ليست على رتبة واحدة بل أنفسها:

1- **معرفة الذات:** معرفة الذات أضيقها مجالا وأعسرها منالا وأعصاها على الفكر وأبعدها عن قبول الذكر، ولذلك لا يشتمل القرآن منها إلا على تلويحات وإشارات، ويرجع ذكرها إلى ذكر التقديس المطلق كقوله تعالى: **[لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ]**

[الشورى:11] وسورة الإخلاص، وإلى التعظيم المطلق كقوله: [**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ. بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**] [الأنعام: 100-101].

2- وأما **الصفات** فالمجال فيها أفسح ونطاق النطق فيها أوسع ولذلك كثرت الآيات المشتملة على ذكر العلم والقدرة والحياة والكلام والحكمة والسمع والبصر وغيرها.

3- وأما **الأفعال** فبحر متسعة أكنافه ولا تنال بالاستقصاء أطرافه، بل ليس في الوجود إلا الله وأفعاله وكل ما سواه فعله لكن القرآن يشتمل على الجلي منها الواقع في عالم الشهادة...

القسم الثاني: في تعريف طريق السلوك إلى الله تعالى

وذلك بالتبتل كما قال الله تعالى: [**وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا**] [المزمل:8]؛ أي انقطع إليه، والانقطاع إليه يكون بالإقبال عليه والإعراض عن غيره، وترجمته قوله: [**لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا**] [المزمل:9]، والإقبال عليه إنما يكون بملازمة الذكر، والإعراض عن غيره يكون بمخالفة الهوى والتنقي عن كدورات الدنيا وتزكية القلب عنها، والفلاح نتيجتها كما قال الله تعالى: [**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**] [الأعلى: 14-15].

فعمدة الطريق أمران الملازمة والمخالفة؛ الملازمة لذكر الله تعالى، والمخالفة لما يشغل عن الله، وهذا هو السفر إلى الله وليس في هذا السفر حركة لا من جانب المسافر ولا من جانب المسافر إليه فإنهما معا، أَوَمَا سمعت قوله تعالى وهو أصدق القائلين: [**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**] [سورة ق:16].

القسم الثالث: في تعريف الحال عند ميعاد الوصول إليه

وهو يشتمل على ذكر الروح والنعيم الذي يلقاه الواصلون، والعبارة الجامعة لأنواع روحها الجنة، وأعلاها لذة النظر إلى الله تعالى، ويشتمل أيضا على ذكر الخزي والعذاب الذي يلقاه المحجوبون عنه بإهمال السلوك، والعبارة الجامعة لأصناف آلامها الجحيم وأشدها ألما ألم الحجاب والإبعاد...

القسم الرابع: في أحوال السالكين والناكبين:

أما أحوال السالكين فهي قصص الأنبياء والأولياء كقصة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وهارون وزكرياء ويحيى وعيسى ومريم وداود وسليمان ويونس ولوط وإدريس والخضر وشعيب وإلياس ومحمد وجبريل وميكائيل والملائكة وغيرهم.

وأما أحوال الجاحدين والناكبين فهي كقصص نمرود وفرعون وعاد وقوم لوط وقوم تبع وأصحاب الأيكة وكفار مكة وعبدة الأوثان وإبليس والشياطين وغيرهم. وفائدة هذا القسم الترهيب والتنبيه والاعتبار...

القسم الخامس: في محاجة الكفار ومجادلتهم وإيضاح مخازيهم بالبرهان الواضح وكشف تخاييلهم وأباطيلهم: وذلك ثلاثة أنواع:

أحدها: ذكر الله تعالى بما لا يليق به من أن الملائكة بناته وأن له ولدا وشريكا وأنه ثالث ثلاثة.

والثاني: ذكر رسول الله بأنه ساحر وكاهن وكذاب، وإنكار نبوته وأنه بشر كسائر الخلق فلا يستحق أن يتبع.

وثالثها إنكار اليوم الآخر وجحد البعث والنشور والجنة والنار، وإنكار عاقبة الطاعة والمعصية، وفي محاجة الله تعالى إياهم بالحجج لطائف وحقائق ويوجد فيها الترياق الأكبر وآياته أيضا كثيرة ظاهرة.

القسم السادس: في تعريف عمارة منازل الطريق وكيفية التأهب للزاد والاستعداد بإعداد السلاح الذي يدفع سراق

المنازل وقطاعها: الدنيا منزل من منازل السائرين إلى الله تعالى والبدن مركب، فمن ذهل عن تدبير المنزل والمركب لم يتم سفره، وما لم ينتظم أمر المعاش في الدنيا لا يتم أمر التبتل والانقطاع إلى الله تعالى الذي هو السلوك، ولا يتم ذلك حتى يبقى بدنه سالما ونسله دائما، ويتم كلاهما بأسباب الحفظ لوجودهما وأسباب الدفع لمفسداتهما ومهلكاتهما.

وإن جمعت الأقسام الستة المذكورة مع شعبها المقصودة في سلك واحد ألفيتها عشرة أنواع: ذكر الذات، وذكر الصفات، وذكر الأفعال، وذكر المعاد، وذكر

الصراط المستقيم أعني جانبي التزكية والتحلية، وذكر أحوال الأولياء، وذكر أحوال الأعداء، وذكر محاجة الكفار، وذكر حدود الأحكام"[13].

ثانيا: مقاصد القرآن عند البغوي (516 هـ) من خلال تفسيره "معالم التنزيل":

ذكر البغوي في مقدمة تفسيره "معالم التنزيل" بعض المقاصد على سبيل الإجمال وتعريضا غير قاصد الحديث عن مقاصد القرآن في معرض وصفه ما جاء في القرآن الكريم من الهدى والفلاح فقال: "وأنزل عَلَيْهِ بِفَضْلِهِ نُورًا هَدَى بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَأَنْقَذَ بِهِ مِنَ الجهالة، حكم بالفلاح لمن تبعه، وبالخسران لمن أعرض عنه بعد ما سمعه، وأعجز الْخَلِيقَةَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ، وَعَنِ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ فِي مُقَابَلَتِهِ، ثم سهل عَلَى الْخَلْقِ مَعَ إِعْجَازِهِ تِلَاوَتَهُ وَيَسَّرَ عَلَى الْأَلْسُنِ قِرَاءَتَهُ، أَمَرَ فِيهِ وَزَجَرَ وَبَشَّرَ وَأَنْذَرَ وَذَكَرَ الْمَوَاعِظَ لِيُتَذَكَّرَ، وَقَصَّ عَنْ أَحْوَالِ الْمَاضِينَ لِيُعْتَبَرَ، وَضَرَبَ فِيهِ الْأَمْثَالَ لِيُتَدَبَّرَ، وَدَلَّ عَلَى آيَاتِ التَّوْحِيدِ لِيُتَفَكَّرَ، وَلَا حُصُولَ لِهَذِهِ الْمَقَاصِدِ إِلَّا بِدِرَايَةِ تَفْسِيرِهِ وَأَعْلَامِهِ"[14].

فجعل من مقاصد القرآن ذكر المواعظ وأخبار الماضين وأحكام العقيدة والتذكر والتدبر والتفكر والاعتبار. فعدَّ هذه الأمور من المقاصد، وقد يعدها غيره من محاور القرآن، كونها من الموضوعات الرئيسة في القرآن الكريم.

ثالثا: مقاصد القرآن عند ابن جزي (741هـ) من خلال تفسيره "التسهيل لعلوم التنزيل":

ذكرت مقاصد القرآن بشكل أوضح عند ابن جزي الكلبي في مقدمة تفسيره تحت باب سماه: **"في المعاني والعلوم التي تضمنها القرآن"** وميز بين مقصد عام ومقصد تفصيلي، **فقال ما نصه: "**الباب الثالث: في المعاني والعلوم التي تضمنها القرآن. ولنتكلم في ذلك على الجملة والتفصيل.

أما الجملة، فاعلم أنّ المقصود بالقرآن دعوة الخلق إلى عبادة الله وإلى الدخول في دينه، ثم إنّ هذا المقصد يقتضي أمرين، لا بد منهما، وإليهما ترجع معاني القرآن كله: أحدهما بيان العبادة التي دعي الخلق إليها، والأخرى ذكر بواعث تبعثهم على الدخول فيها وتردّدهم إليها، فأما العبادة فتنقسم إلى نوعين، وهما أصول العقائد وأحكام الأعمال.

وأما البواعث عليها فأمران وهما: الترغيب والترهيب.

وأما على التفصيل فاعلم أنّ معاني القرآن سبعة: هي علم الربوبية، والنبوة، والمعاد، والأحكام، والوعد، والوعيد والقصص"[15].

والمتأمل في كلام ابن جزي يلحظ تداخلا في كلامه بين مقاصد القرآن ومعاني القرآن وموضوعاته، وهما أمران وجب التمييز بينهما، لكن جمعه بينهما في هذا السياق يرجع إلى كون الموضوعات والمعاني القرآنية العامة التي سردها إنما جاءت خادمة لذلك المقصد العام الذي حدده في "الدعوة إلى دين الله". وهو بذلك يشير إلى محاور القرآن وحصرها في سبعة.

ونخلص من خلال البحث في علم مقاصد القرآن ومحاوره عند المتقدمين، أنهم تناولوا الموضوع وبينوا مسائل عديدة منه، بأسلوب التصريح أو التلميح ولكن دون تحديد للمصطلح باسم محدد. أما مصطلح المحاور فلم نعثر عليه عندهم.

الفرع الرابع- مقاصد القرآن ومحاوره عند المتأخرين:

احتفت مؤلفات المتأخرين بدراسة مقاصد القرآن من خلال تفسيرهم للقرآن الكريم خصوصا، أو في مصنفاتهم في علوم القرآن عموما، كما استخدم بعضهم مصطلح المحاور وسيأتي بيان كل ذلك بتفصيل بحسب ما يسمح به المقام.

أولا- مقاصد القرآن عند محمد رشيد رضا من خلال كتابه "الوحي المحمدي":

ذكر رشيد رضا هذه المقاصد في معرض تفسيره لمطلع سورة يونس وهو قوله تعالى: [**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ**] [يونس: 1-2]. وإثباته صدق نبوة محمد ﷺ، وتفنيد مزاعم من عارضها وطعن فيها، وفي سياق بيان هذا الأمر أورد فصولا طويلة في بيان حقيقة القرآن الكريم الموحى به إلى النبي ﷺ، فذكر مقاصده تحت باب كبير سماه: "آية الله الكبرى: القرآن العظيم"، وفصل يتفرع عنه سماه: "مقاصد القرآن في ترقية نوع الإنسان"، ثم فصل القول في هذه المقاصد حاصرا إياها في عشرة، سأكتفي بذكرها ملخصة فيما يأتي:

المقصد الأول من مقاصد القرآن: في بيان حقيقة أركان الدين الثلاثة التي دعا إليها الرسل وضل فيها أتباعهم، إنّ أركان الدين الأساسية التي بعث الله تعالى بها جميع رسله، وناط بها سعادة البشر هي الثلاثة المبينة بقوله تعالى: [**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**

وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ] [البقرة: 62]، وهاك الكلام على كل واحد منها بالإيجاز، لأن المراد هنا بيان أن ما جاء به القرآن منها هو أتمّ وأكمل من المعروف في سائر الأديان، وفيه صلاح لما أفسد أهل الملل من دين الأنبياء، مما طرأ على كتبهم من الضياع والتحريف، وما ابتدعوا فيه من الأهواء والتقاليد، وليس المراد بيانها في ذاتها بالتفصيل الذي يتوقف عليه العمل، حتى إذا ثبت ما يقصده من نبوة محمد ﷺ وكون هذا القرآن كلام الله عزّ وجلّ أوحاه إليه، علم منه أنه يجب على المؤمن به أن يتعلم جميع ما فرضه عليه...

المقصد الثاني من مقاصد القرآن: بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل..

المقصد الثالث من مقاصد القرآن: إكمال نفس الإنسان من الأفراد والجماعات والأقوام...

المقصد الرابع من مقاصد القرآن: الإصلاح الإنساني الاجتماعي السياسي الوطني بالوحدات الثماني (وحدة الأمة- وحدة الجنس البشرى- وحدة الدين- وحدة التشريع بالمساواة في العدل- وحدة الأخوة الروحية والمساواة في التعبد- وحدة الجنسية السياسية الدولية- وحدة القضاء- وحدة اللغة).

المقصد الخامس من مقاصد القرآن: «تقرير مزايا الإسلام العامة في التكاليف الشخصية من الواجبات والمحظورات»، ونلخص أهمها بالإجمال في عشر جمل أو قواعد وتتمثل في:

الأولى: كونه وسطا جامعا لحقوق الروح والجسد، ومصالح الدنيا والآخرة، وهو نص قوله تعالى: **[وَكَذٰلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً]** [البقرة: 143].

الثانية: كون غايته الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة بتزكية النفس بالإيمان الصحيح ومعرفة الله والعمل الصالح ومكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، لا بمجرد الاعتقاد والاتكال، ولا بالشفاعات وخوارق العادات.

الثالثة: كون الغرض منه التعارف والتأليف بين البشر لا زيادة التفريق والاختلاف كما يزعم أعداء الأديان.

الرابعة: كونه يسرا لا حرج فيه ولا عسر ولا إرهاق ولا إعنات، قال الله عزّ وجلّ: [**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها**] [البقرة: 286]، وقال بلغت حكمته: [**وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ**] [البقرة: 220].

الخامسة: منع الغلو في الدين وإبطال جعله تعذيبا للنفس بإباحة الطيبات والزينة بدون إسراف ولا كبرياء. وقد فصلنا ذلك في تفسير الآيات الواردة في الأمر بالأكل من الطيبات في سورة البقرة، وسورة المائدة، وتفسير قوله تعالى: [**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**] [الأعراف:31-32]. وقال الله تعالى: [**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ**] [النساء: 171]، وفي هذا النهى اعتبار للمسلمين لأنهم أولى بالانتهاء عن الغلو بأن دينهم دين الرحمة واليسر، والأحاديث الصحيحة في نهي المسلمين عن الغلو في العبادة وعن ترك الطيبات، وعن الرهبانية، مبينة لهذه الآيات وهى مصداق تسمية النبي ﷺ لملته بالحنيفية السمحة.

السادسة: قلّة تكاليفه وسهولة فهمها، وقد كان الأعرابي يجيء النبي ﷺ من البادية فيسلم فيعلّمه ما أوجب الله وما حرّم عليه في مجلس واحد فيعاهده على العمل به فيقول ﷺ: «أفلح الأعرابي إن صدق»، وكان هذا أعظم أسباب قبول الناس له...

السابعة: انقسام التكليف إلى عزائم ورخص، وكان ابن عباس يرجّح جانب الرخص، وابن عمر يرجّح العزائم، والناس درجات في التقصير والتشمير والاعتدال، فهو يوافق البدوي الساذج والفيلسوف الحكيم وما بينهما من الطبقات. قال الله تعالى: [**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**][فاطر: 32].

الثامنة: نصوص الكتاب والسنة وهدي السنة مراعى فيهما درجات تفاوت البشرية في العقل والفهم وعلو الهمة وضعفها، فالقطعي منها هو العام، وغير القطعي تتفاوت فيه الأفهام، فيأخذ كل أحد منه بما أداه إليه اجتهاده...

التاسعة: معاملة الناس بظواهرهم، وجعل البواطن موكولة إلى الله تعالى، فليس لأحد من الحكام ولا الرؤساء الرسميين ولا لخليفة المسلمين أن يعاقب أحدا، ولا

أن يحاسبه على ما يعتقد أو يضمر في قلبه، وإنما العقوبات على المخالفات العملية للأحكام العامة المتعلقة بحقوق الناس ومصالحهم.

العاشرة: مدار العبادات كلّها على اتباع ما جاء به النبي ﷺ في الظاهر، فليس لأحد فيها رأى شخصي ولا رئاسة، ومدارها في الباطن على الإخلاص لله تعالى وصحة النية، والآيات والأحاديث في الأمرين كثيرة.

كل واحدة من هذه العشر جديرة بأن تجعل مقصدا خاصا من مقاصد الوحي، ويستدل بها على أنه من عند الله عزّ وجلّ...

المقصد السادس من مقاصد القرآن بيان حكم الإسلام السياسي الدولي: نوعه، وأساسه، وأصوله العامة الإسلام دين هداية وسيادة وسياسة وحكم، لأنّ ما جاء به من إصلاح البشر في جميع شئونهم الدينية، ومصالحهم الاجتماعية والقضائية، يتوقف على السيادة والقول والحكم بالعدل وإقامة الحق، والاستعداد لحماية الدين والدولة...

المقصد السابع من مقاصد القرآن: الإرشاد إلى الإصلاح المالي.

المقصد الثامن من مقاصد القرآن: إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وقصرها على ما فيه الخير للبشر، نظرة عامة في فلسفة الحرب والسلم والمعاهدات...

المقصد التاسع من مقاصد القرآن: إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية...

المقصد العاشر من مقاصد القرآن: تحرير الرقبة..."[16].

ومجمل ما ذكره محمد رشيد رضا من مقاصد القرآن العشرة فيه بعض من المقاصد الفرعية، لمقاصد أصلية، كما أنه لم يشر إلى مصطلح المحاور في كلامه عن مقاصد القرآن الكريم.

2- مقاصد القرآن عند عبد العظيم الزرقاني من خلال كتابه "مناهل العرفان":

ذكر الزرقاني مقاصد القرآن في معرض كلامه حول ترجمة القرآن فقال: "مقاصد القرآن الكريم: بما أن الترجمة عرفا لا بد أن تتناول مقاصد الأصل جميعا فإنا نقفك على أن له تعالى في إنزال كتابه العزيز ثلاثة مقاصد رئيسية؛ أن يكون

هداية للثقلين، وأن يقوم آية لتأييد النبي ﷺ، وأن يتعبد الله خلقه بتلاوة هذا الطراز الأعلى من كلامه المقدس"[17].

ثم بين هدايات القرآن فقال: "وهداية القرآن تمتاز بأنها عامة وتامة وواضحة..."

أما عمومها فلأنها تنتظم الإنس والجن في كل عصر ومصر وفي كل زمان ومكان قال الله سبحانه: **[وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ]** [الأنعام: 19] وقال جلت حكمته: **[وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا]** [الأنعام: 92].

وأما تمام هذه الهداية فلأنها احتوت أرقى وأوفى ما عرفت البشرية وعرف التاريخ من هدايات الله والناس، وانتظمت كل ما يحتاج إليه الخلق في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أنواعها، وجمعت بين مصالح البشر في العاجلة والآجلة، ونظمت علاقة الإنسان بربه وبالكون الذين يعيش فيه، ووفقت بطريقة حكيمة بين مطالب الروح والجسد، اقرأ إن شئت قوله سبحانه: **[لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ]** [البقرة:177]**....** إلى غير ذلك من آيات كثيرة.

وأما وضوح هذه الهداية فلعرضها عرضا رائعا مؤثرا توافرت فيه كل وسائل الإيضاح وعوامل الإقناع: أسلوب فذ معجز في بلاغته وبيانه، واستدلال بسيط عميق يستمد بساطته وعمقه من كتاب الكون الناطق، وأمثال خلابة تخرج أدق المعقولات في صورة أجلى الملموسات، وحكم بالغات تبهر الألباب بمحاسن الإسلام وجلال التشريع، وقصص حكيم مختار يقوي الإيمان واليقين ويهذب النفوس والغرائز ويصقل الأفكار والعواطف ويدفع الإنسان دفعا إلى التضحية والنهضة ويصور له مستقبل الأبرار والفجار تصويرا يجعله كأنه حاضر تراه الأبصار في رابعة النهار، والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن يخرجنا استعراضها عما نحن بسبيله الآن. والمهم أن نعلم في هذا المقام أن الهدايات القرآنية الكريمة منها ما استفيد من معاني القرآن الأصلية، ومنها ما استفيد من معانيه التابعة، أما القسم الأول فواضح لا يحتاج إلى

تمثيل وهو موضع اتفاق بين الجميع، وأما القسم الثاني ففيه دقة جعلت بعض الباحثين يجادل فيه"[18].

أجمل الزرقاني مقاصد القرآن في ثلاثة مقاصد رئيسة؛ الهداية وإثبات معجزة القرآن، وتعبد الخلق بتلاوته، والعمل بما جاء به. ولم يشر الزرقاني لمصطلح المحاور.

3- مقاصد القرآن عند محمد الطاهر بن عاشور من خلال مقدمة تفسيره "التحرير والتنوير":

تحدث ابن عاشور عن مقاصد القرآن في مقدمة تفسيره فقال: "ليس قد وجب على الآخذ في هذا الفن – التفسير - أن يعلم المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها فلنلم بها الآن بحسب ما بلغ إليه استقراؤنا وهي ثمانية أمور:

الأول: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح. وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق، لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: [**فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ**] [هود: 101]. فأسند لآلهتهم زيادة تتبيبهم، وليس هو من فعل الآلهة ولكنه من آثار الاعتقاد بالآلهة.

الثاني: تهذيب الأخلاق قال تعالى: [**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**] [القلم:4]. وفسرت عائشة رضي الله تعالى عنها لما سئلت عن خلقه ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن... وهذا المقصد قد فهمه عامة العرب بَلْهَ خاصة الصحابة...

الثالث: التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة. قال تعالى: [**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا**] [النساء:105]. ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعا كليا في الغالب، وجزئيا في المهم..

الرابع: سياسة الأمة وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها كالإرشاد إلى تكوين الجامعة بقوله: [**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ**

إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ] [آل عمران:103]...

الخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم قال تعالى: [**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**] [يوسف:3]، [**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**] [الأنعام:90] وللتحذير من مساويهم قال: [**وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ**] [إبراهيم:45] وفي خلالها تعليم.

السادس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار، وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب. وقد زاد القرآن على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين وفي دعوته إلى النظر، ثم نوه بشأن الحكمة فقال: [**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**] [البقرة:269]. وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم...

السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.

الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول؛ إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدي، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه ومتحدي لأجله بمعناه والتحدي وقع فيه [**قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**] [يونس:38]. ولمعرفة أسباب النزول مدخل في ظهور مقتضى الحال ووضوحه"[(19)].

ومن خلال استقراء العلامة محمد الطاهر بن عاشور لكتاب الله خلص أن مقاصد القرآن الكريم ثمانية، لا يمكن الوصول إلى فهم مراد الله عز وجل إلا بإدراكها. ولم يستخدم ابن عاشور مصطلح المحاور في بيانه لمقاصد القرآن .

4- مقاصد القرآن ومحاوره عند محمد الغزالي من خلال كتابه "المحاور الخمسة للقرآن الكريم":

يمكن عدُّ كتاب محمد الغزالي "المحاور الخمسة للقرآن الكريم" أحد أهم المراجع في موضوع مقاصد القرآن ومحاوره، وهو أول من استعمل مصطلح

المحاور في الدراسة القرآنية بالمعنى الاصطلاحي، وقد جعل محاور القرآن خمسة وهي كما جاءت في كتابه:

المحور الأول: الله الواحد

يبين حالة البشر منذ القدم؛ فهم إما مُشرك مع الله غيره، وهؤلاء قالوا: **[أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ]** [الأعراف:60]، أو منكر الألوهية بالأساس، وهم من قالوا: **[مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ]** [الجاثية:24]، وهؤلاء وأولئك هم من قابلوا الأنبياء عليهم السلام بالحرب الشعواء لمّا جاؤوا يدعونهم إلى توحيد الله. وقد أفاض القرآن في هذه القضية، وهو يمزج في ذلك بين أمرين:

1- فقر العالم إلى الله وقيامه به واستمداده الوجود منه؛ لأنه من المستحيل أن ينتظم هذا العالم من غير منظِّم أو يتخلق من غير خالق.

2- أن هذا الخالق المدبر واحد لا شريك له، ليس له ندّ ولا ضدّ، كل شيء هالك إلا وجهه..

ويستقرئ الشيخ آيات القرآن ومسيرة التوحيد والشرك والدعوة والتكذيب، ثم يؤكد أن التوحيد قانون الوجود ونظام الحياة: "فإننا نشبه المصابيح الكهربية التي لا تضيء من ذاتها؛ وإنما تضيء بتيار يسري في الأسلاك إليها؛ فإذا انقطع هذا المدد الخارجي أظلمت".

المحور الثاني: الكون الدال على خالق:

يؤكد الشيخ الغزالي أن الكون كله دليل على الله من أصغر شيء إلى أكبر شيء، ويدعونا للتأمل في نفوسنا وعالمنا المحدود؛ لندرك أن الخالق قدير، حكيم، عليم، لا منتهى لكماله، ولا حدود للثناء عليه.. ثم بعد ذلك نعلم أن ما غاب عن وعينا وعلمنا أكبر بكثير مما نما إليه علمنا الذي وهبنا الله إياه **[لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ]** [غافر:57].

استمع إليه يقول: "إن الجهاز الذي يخترعه أحد العباقرة ينطق بعقل صاحبه وشدة تألقه، وبديع السماوات والأرض أودع في خلايا الأجسام الحية، وفي ذرات الأجرام الميتة ما ينادي بعلمه وحكمته وبركته.. إن هذا الكون هو المسرح الأول لفكرنا والينبوع الأول لإيماننا"..

المحور الثالث: القصص القرآني

وهذا المحور هو أوسع المحاور القرآنية، ويردّ الشيخ على سؤال هام، وهو: هل القصص الواردة في القرآن تكرار يُغني قليله عن كثيره؟.

ثم ينفي هذا مبيّناً أن لكل قصة في موضعها إيراد مقصود، وأَثَر مغاير يحتاج إليه السامع لتكتمل به الحقيقة التاريخية والتربوية...

والقصص القرآني أداة للتربية ومصدر توجيه ووعظ واعتبار؛ لذا قصّ القرآن علينا قصص الماضين؛ لأن "الإنسان هو الإنسان قد يختلف في ريفه وحضَره وأميته وثقافته؛ ولكن ذلك الاختلاف في وسائله إلى أهدافه؛ أما غرائزه فهي في أصلها ثابت؛ قلما يعروها تغيير.. إن عرام الشهوات في هوليوود لا يقلّ عن أمثاله من عشرات القرون في أسواق النخاسة أو مواطن البغاء مهما تقدم العلم، ومخازي الاستعمار لا تقلّ عن أمثالها أيام جبروت الأباطرة والفراعنة، وإن لطُفت الأسماء ورقّت العناوين".

ثم يقودنا الغزالي في تؤدة بعد تطوافه في الحضارة الحالية إلى حضارات مشابهة ذُكِرت في القرآن الكريم؛ لنجد أنفسنا ونحن نتحدث عن العصر الحديث بكل أبعاده من مشكلات الأطفال والإيدز، وغزو الفضاء، إلى عمالقة عاد، وقوم نوح في القصص القرآني، وهو ربط فريد نجح به الشيخ الغزالي أن يبرهن على غاية سوق القصص القرآني بطريقة عملية الذي هو مناط إيراد هذا القصص التربية والاعتبار **[لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**][يوسف:111].

المحور الرابع: البعث والجزاء

إن الله أوجد البشرية لا لتعيش برهة من الزمن ثم تفنى؛ بل خَلَقها الله لتخلد.

يقول الغزالي: "... إنه أوجدهم ليخلدوا، والموت الذي يعترض ميادين على ظهر الأرض هو رقدة مؤقتة أو نقطة فاصلة بين مرحلتين من الوجود، كانت الأولى للغرس والأخرى للحصاد. وخلال لغوب الأحياء في ميادين الحياة، وسكون الموتى تحت صفائح القبور، يقع حادث كوني واسع المدى، وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله: **[وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ**

جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ] [يس:51-53]. أما الذين أحسنوا الغراس، واستعدوا للقاء الله فإنهم يقولون: [**أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**] [الصافات:58-60]. وأما الذين ظنوا العيش بين المهد واللحد، هو الوجود الأول والأخير، وجحدوا ما بعده، فلهم شأن آخر: [**وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ**] [الملك:6-8].

وقد أكثر القرآن من الحديث عن الدار الآخرة والتذكير بما فيها من بعث وجزاء وجنة ونار، ثم يمضي القرآن مبيّناً أخلاق طلاب جنة الآخرة مُعدّداً صفاتهم من الشجاعة، والصدق، والإخلاص، والأخلاق الكريمة.

ويخلص الغزالي في توصيف محور البعث والجزاء بقوله: "إن الحياة الدنيا ميدان اختبار، وليست موعدا لإعلان النتائج وإقرار العدل! وفي ذلك الامتحان المعقد الثقيل قد يقتل أنبياء ويصاب شهداء، وتنتشر شائعات على أنها حقائق، وتدرس جهالات على أنها علم ولابد من يوم تعود فيه الاستقامة لهذه الموازين المختلة، وتصح فيه الأوضاع السقيمة. لابد من يوم القيامة [**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**] [الزلزلة:6-8]. المحزن أن أكثر الناس مصروف عن هذه الحقيقة.

المحور الخامس: ميدان التربية والتشريع

ويؤكد الغزالي أن رسالة الإنسان كما وصفها القرآن توضّح درجة الرفعة التي أرادها الله له.. لقد خلقه الله ليكون خليفة له، وعبادة الإنسان لله لم يكلفه الله بها انتظاراً لنائل يعود على المعبود منها؛ ولكنه تكليف للبشري ليعرف وضعه على حقيقته ويكون انتماؤه لله وولاؤه لله.. والتربية الصحيحة هي التي تقوم على وعي عام بغايات الوجود ووعي مُفصّل بمعالم الكمال التي أسهب الدين في شرحها واستفاضت أنباؤها في الكتاب والسنة.

ويؤكد الغزلي كذلك عوائق قيام هذا النموذج وعقبات تفكّ الارتباط بين العلم والعمل والرغبة والتنفيذ؛ لذا فالتربية الناجحة مهمة شاقة وصناعة الإنسان من أعقد الصناعات في الدنيا.

ثم يمضي في توضيح هذا المحور في القرآن الكريم؛ فيبرز أمامنا لافتة كبيرة تقول:"الله يحب" و"الله لا يحب"؛ كأسلوب تربوي اتخذه القرآن ليتّبع المؤمنون ما يحبه الله ويجتنبوا ما لا يحبه.

ويمضي الغزالي في تفصيل ما يحبه الله كما ورد في القرآن الكريم، في إسقاط على واقعنا وبمعانٍ تُعيننا على السعي لإدراك ما يحبه الله والبعد عما لا يحبه فيحضّ على الإحسان والتوبة والتقوى والتوكّل، وينهى عن الفساد والاعتداء والفخر والإسراف والخيانة والجهر بالسوء من القول، في إحصاء لآيات القرآن الواردة بصيغة "الله يحب"، و"الله لا يحب.". فالإنسان لا يبلغ تلك المكانة التي رشحه القرآن بلوغها إلا بأسلوب التربية و التعليم.

ومن خلال استقراء الشيخ الغزالي كتاب الله؛ يُجمل محاوره في هذه المحاور الخمسة، وقبل كل ذلك نجح في أن ينقل علاقتنا بالقرآن الكريم من علاقة المتلقي للاستماع أو القارئ لبلوغ آخر السورة، إلى علاقة المتلقي للتنفيذ والقارئ للتدبر.. وهي النقطة التي صاغ بها القرآن القلوب وفتح بها العقول لتسُود الدنيا كلها **[لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ]** [الأنبياء:10].

الخاتمة:

وبعد هذا العرض الموجز للدراسات التي تناولت مقاصد القرآن ومحاوره عند بعض المتقدمين، وبعض المتأخرين يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية:

- محاور القرآن هي الموضوعات التي تدور عليها السورة والتي يتم من خلالها التوصل للمقصد الأصلي من السورة.

- القرآن الكريم احتوى على أعلى المقاصد وأكبرها فهو أصل الأصول ومصدر المصادر.

- إن جميع المقاصد القرآنية المعتبرة، إنما هي راجعة في جملتها أو تفصيلها، تصريحا أو تضمينا إلى هدي القرآن وتعاليمه وأسراره وتوجيهاته.

أهمية معرفة مقاصد القرآن الكريم و فوائدها كثيرة ومنها:

- فهم القرآن وتفسيره فالعلم بالمقاصد ليس مقصودا لذاته، وإنما يراد به إعماله واستثماره في فهم النصوص الشرعية وتوجيهها، وهذا يكون على الخصوص في النصوص ظنية الدلالة.

- تناول المتقدمون علم مقاصد القرآن ومحاوره، وبينوا مسائل عديدة منه، بأسلوب التصريح أو التلميح ولكن دون تحديد للمصطلح باسم محدد.

- مصطلح المحاور، منهم من أشار إلى معناه دون استخدام اسمه وتحديد لمعناه بالدقة المصطلحية المعهودة عند المتقدمين، واستخدم عند المتأخرين باسمه.

والموضوع يستحق مساحة أرحب مما هو مسموح به في هذا المقام.

الهوامش:

1- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م، مادة "قصد".

2 - تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط 1، 2001م، مادة "قصد".

3 - قواعد الأحكام في مصالح الأنام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، دار الكتب العلمية - بيروت، ودار أم القرى القاهرة، 1414 هـ - 1991 م، ج1، ص.10

4- عرفها علال الفاسي بقوله:" "المراد بمقاصد الشريعة: الغاية منها والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها"، علال الفاسي، مقاصد الشريعة ومكارمها، دار الغرب الإسلامي، ط 5، 1993م، ص7. وأجمل أحمد الريسوني تعريف مقاصد شريعة بقوله:"مقاصد الشريعة هي الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد". نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي ص 6-7. وينظر: كتابه الفكر المقاصدي، قواعده وفوائده، ص 13.

5- مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة" حور"، ج2، ص.116

6- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420 هـ - 2000 م، ج3، ص.475

7- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط1384،2هـ - 1964 م،ج 6، ص 12.

8- طرق الكشف عن مقاصد الشارع، نعمان جغيم، دار النفائس- عمان الأردن، ط1435،1ه- 2014م، ص 46.
9 - الفكر المقاصدي: قواعده وفوائده، أحمد الريسوني، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء المغرب، ص 92.
10 - مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، يوسف أحمد محمد البدوي، دار النفائس، 2000م، ص115.
11 - مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، يوسف أحمد محمد البدوي، ص .115
12- مقاصد المقاصد، عماد الدين عشماوي، ص50، نقلا عن: http://www.noonpost.org.
13- ينظر: جواهر القرآن، أبو حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1435 هـ - 2014م.
14 - معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط1، 1420 هـ،ج 1، ص.45
15 - التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي، تحقيق عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن
أبي الأرقم، بيروت- لبنان، ط1 - 1416 هـ، ج1، ص.14
16- ينظر:الوحي المحمدي، محمد رشيد بن علي رضا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1426 هـ- 2005 م، ص.121
17- مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، دار الكتاب العربي بيروت، ط 4 ،1423هـ -2002م، ص89.
18 - مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، ص89.
19- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر– تونس، 1984م، ج1، ص41.